مَوْقِفُ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ النَّبِيِّ عِيسى عليه السلام وَدَعْوَتِهِ

الشيخ الدكتور منصور مندور
من علماء الازهر الشريف

فحوى البحث

بحث عرض فيه الشيخ الباحث لظاهرة من الظواهر السلبية التي التزم بها بنو اسرائيل في ايذاء أنبيائهم وقتلهم وعصيانهم وقد نعى القرآن الكريم عليهم هذه الامور حتى لقد صار الكفر ديدنهم والأذى سجيتهم.

وها نحن نقرأ في هذا البحث صورة جلية لما كان عليه بنو اسرائيل مع نبي الله عيسى ابن مريم الذي أراد أن يهديهم و يُحلَّ لهم كثيراً مما حُرِّم عليهم بسبب بغيهم وكفرهم مستنداً في طرحه الاحداث الى القرآن الكريم أولاً ومستعيناً بمصادر قليلة ومحدودة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحور الأول:

تعريف بعيسى ابن مريم عليه السلام:

أولاً: ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام:

بينما مريم في محرابها، مطمئنة إلى انفرادها، ذاكرة لربها، إذ دخل عليها رجل لا تعرفه، ولا تدري كيف دخل عليها ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾[سورة مريم: ١٧] فإذا بها تنتفض انتفاضة شديدة فتلجأ إلى الله تستعيذ به، وتأوي إليه ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [سورة مريم: ١٨].

وبينما هي كذلك إذ يبشرها الملك بما جاء به ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾[سورة مريم: ١٩]، غلام له شان عظيم، يكون وجوده بكلمة الله تعالى، وليكون آية من آيات الله ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [سورة مريم: ٢١]؛ فتسأل في صراحة واستغراب ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[سورة مريم: ٢٠] فأنا لست ذاتَ زوجٍ، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً حاشا لله، فالتصور البشري يدرك أن الغلام إنما يأتي بوسيلة من هذه الوسائل التي اعتادها الناس، ولكن الملك يكشف لها عن عظيم قدرة الله، فيقول لها كما حكى القرآن الكريم ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[سورة آل عمران: ٤٧] فهو أية كما كان آدم آية ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩].

والواضح أن الملك نفخ في رحمها نفخة حملت على إثرها، ولما جاءها المخاض أتت إلى المكان البعيد، وتحت جذع نخلة وضعت وليدها، تساعدها الملائكة، يصور القرآن الكريم هذا المشهد فيقول سبحانه: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [سورة

مريم: ٢٢ -٢٣]. وكما أن الله تعالى كان يرزقها وهي في المحراب دون عناء أو شقاء، ساق لها رزقها وهي تضع مولودها، فأسقط عليها الرطب وأجرى لها الماء العذب، ولكنها شعرت بالخوف من عظيم المفاجأة، فقالت: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [سورة مريم: ٢٣] وهي في حدة الألم، وهول الموقف، تسمع هذا الصوت الرقيق يناديها من تحتها، يُطمئنها إلى قضاء الله وقدره، ويرشدها إلى طعامها وشرابها، ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا...﴾ [سورة مريم: ٢٤ -٢٦].

ولا شك أن كل كلمة في كتاب الله لها مدلولها القوي الذي يناسب مقام الآية.. وهذه الدقة تشهد أن القرآن المجيد لا يمكن أن يكون قول بشر.. يلاحظ ذلك في حديث القرآن عن الأنبياء نجد أن كثيراً من الأنبياء خاطبوا قومهم بكلمة يا قومِ...

فهذا هو سيدنا نوح يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [سورة الأعراف: ٥٩].

وهذا هو سيدنا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [سورة هود: ٥٠].

كذلك فإن سيدنا صالح عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [سورة هود: ٦١]...

وهكذا حال كثير من الأنبياء يتحدث القرآن المجيد عنهم وعن أقوامهم؛ وينطبق هذا المثال على سيدنا موسى عليه السلام.. الذي كان يخاطب قومه بقوله: يا قوم... ويقصد بني إسرائيل فقد بعث فيهم.

فقد جاء في كثير من الآيات القرآنية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ [سورة البقرة: ٥٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة إبراهيم: ٦]...

وكما نعلم أن موسى أُرسل لبني إسرائيل.. ولكن ماذا عن عيسى وقد أُرسل إلى بني إسرائيل أيضاً؟.

هنا نجد أن الحال يختلف مع سيدنا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام!. فلا توجد أي آية في القرآن تجمع كلمة (عيسى) أو (المسيح) مع كلمة (قوم).. فكان يخاطبهم بقوله: يا بني إسرائيل دائماً من دون أي ذكر للقوم.

يقول القرآن المجيد: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [سورة المائدة: ٧٢]. ويقول أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الصف: ٦]...

وهكذا في كل القرآن لا نجد ذكراً لقوم عيسى!. والآية الوحيدة التي ذكر فيها سيدنا عيسى مع كلمة (قوم) هي: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٧]. وكلمة (قَوْمُكَ) هنا لا تدل على قوم عيسى، بل قوم محمدﷺ لأن الخطاب في هذه الآية للنبي الكريم!!. حتى عندما تحدث القرآن عن السيدة مريم أم المسيح نسبها إلى قومها.. قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [سورة مريم: ٢٧]. ولكن المسيح لم يُنسب لأي قوم في القرآن. أي أن عيسى ليس له قوم!. فما هو السرّ في ذلك؟.

ولكن لماذا نبي الله عيسى ليس له قوم مثل بقية المرسلين؟؟.

فمن المعروف أن نسبة الإنسان تكون دائماً لأبيه، فالأب ينتمي لقبيلة أو قوم أو بلد.. وكذلك فإن الابن ينتمي لنفس القبيلة أو القوم أو البلد... فنبي الله نوح ينتمي لأب من قومه ولذلك نُسب إليهم، ونبي الله إبراهيم ينتمي لأبيه آزر من قومه فنُسب إلى قومه... وهكذا.. وهنا نتساءل: لمن ينتمي سيدنا المسيح؟. طبعاً لا ينتمي لأي قوم لأنه وُلد بمعجزة وجاء إلى الدنيا من غير أب!!. ولذلك من الخطأ أن يقول المسيح لبني إسرائيل: يا قوم!!.وكان لابد أن يناديهم بقوله: يا بني إسرائيل..

وهذا ما فعله القرآن.. ولا توجد ولا آية واحدة تشذّ عن هذه القاعدة.

ومن ثم نجد أن جميع البشر لهم قوم باستثناء نبيين كريمين: هما آدم وعيسى عليهما السلام.. فقد ذكر القرآن هذه الحقيقة في آية كريمة واحدة يقول تعالى فيها: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩]..

فانظروا إلى دقة هذا الكتاب العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد... هل هو كلام بشر؟. أم كلام خالق البشر تبارك وتعالى؟(*).

ثانياً: نعم الله على عيسى عليه السلام:

وما زالت البشارات تترى عليها حول هذا المولود الذي اختارها الله عز وجل لإنجابه على غير مثال سابق، فيأتيها الملك مبيناً نعم الله عليه: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران: ٤٨ – ٥١] تكشف هذه الآيات عن فضل الله تعالى، ونعمه على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام من خلال تعلمه التوراة والإنجيل والحكمة التي آتاه الله إياها، وجعله مباركاً أي كثير الخير أينما وجد، وذا بركات ومنافع في الدين، وأمره بإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقه الله طالما كان حياً يرزق، وأمره بالبر بوالدته، وبذلك يكون برَّأها مما نُسب إليها من قومها ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا

(*) ومن ثم نجد أن قواعد اللغة العربية تسمح لنا أن نكتب ألف (ابن) بعد كلمة عيسى ابن مريم، على خلاف ما إذا جاءت كلمة (ابن) بين علمين فإنها تكتب هكذا: محمد بن عبد الله.

أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[سورة مريم: ٣١ -٣٢].

وقد أنعم الله تعالى عليه أيضاً بالتواضع، فلم يكن مستكبراً ولا جباراً ولا شقياً، قال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[1].

ثالثاً: عبودية عيسى عليه السلام لله (عزّ وجلّ):

جاءت آيات القرآن الكريم مبينة لحال عيسى ابن مريم، وأنه عبد مخلوق لله تعالى، ليس له شأن من ألوهية الله وربوبيته، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [سورة الزخرف: ٥٩] وأول ما نطق به عيسى عند مولده قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[سورة مريم: ٣٠ -٣١].

فلم يقل ما ادعاه النصارى من أنه ابن الله سبحانه وتعالى أو أنه الله عزّ وجلّ أو أنه أحد أقانيم ثلاثة، فقولهم هذا قول باطل لا أصل له، وعيسى عليه السلام لم ينطق إلا بما أنطقه الله من الحق: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾[سورة النساء: ١٧٢].

رابعاً: نبوة عيسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٧٥] أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، جاء بآيات من الله كما أتوا بمثلها، دلالة على صدقه أنه مرسل من عند الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[سورة آل عمران: ٤٩]، وهذا النص يفيد أن

(١) مختصر ابن كثير عند تفسيره للآية٣٢ من سورة مريم.

رسالة عيسى عليه السلام كانت لبني إسرائيل خاصة، فهو أحد أنبيائهم، ثم جاء قوله سبحانه في المائدة: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[سورة المائدة: ١١٠].

فقد حرص النص على أن يذكر على لسان عيسى عليه السلام كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها، إنما جاءهم بها من عند الله، وذِكْـرُ "إذن الله" بعد كل واحدة منها تفصيلاً وتحديداً؛ للدلالة على أنه لم يجئ بها من عند نفسه، وإنما جاء بها من عند الله عز وجل.

وهذا النص يعلن حقيقة التصور الاعتقادي الذي قام عليه دين الله كله، ثم يؤكد ربوبية الله تعالى له ولهم على السواء، فلا عبودية إلا لله، ولا طاعة إلا لله، هذا هو الصراط المستقيم[٢].

خامساً: رفع عِيسَى ابن مريم عليهما السلام:

قال تعالى مخبراً عن نجاته لعبده عيسى من الخيانة والقتل: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٥٧ -١٥٨] إن الله تعالى رفع عبده ونبيه عيسى عليه السلام إلى سمائه وكرامته، فهو حيٌّ في السماء الثانية -كباقي الأنبياء- على ما أشار إليه حديث المعراج الذي أخرجه البخاري عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسري به: (ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟. قال: جبريل، قيل: ومن معك؟. قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟. قال: نعم، فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى

(٢) في ظلال القرآن ص٤٠١.

وعيسى، فسلم عليهما، فسلمت فردّا، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح).

وقد أخبر سبحانه بذلك في آية أخرى حيث قال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[سورة آل عمران: ٥٥].

ومن المفسرين من يرى أن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان؛ فيكون المعنى: إني رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء. واستدلوا على ذلك بما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم من وجه آخر عن الحسن في قوله ((إني متوفيك)) يعني وفاة المنام، رفعه الله في منامه[٣] قال الحسن: قال رسول الله صلى الله عليه وآله للهود: «إن عيسى لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة»[٤]. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ((إني متوفيك ورافعك إلي)) قال: هذا من المقدم والمؤخر. أي رافعك إلي ومتوفيك[٥]. وذكره ابن كثير بلفظ: قال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليَّ ومتوفيك، يعني بعد ذلك[٦].

فأما كيف كانت وفاته، وكيف كان رفعه؛ فهي أمور غيبية تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى، ولا طائل وراء البحث فيها. لا في عقيدة ولا في شريعة؛ والذين يجرون وراءها، ويجعلونها مادة للجدل، ينتهي بهم الحال إلى المراء وإلى التخليط، وإلى التعقيد دون ما جزم بحقيقة، ودون ما راحة بال في أمر موكول إلى علم الله.

وبالنسبة إلى موضوع (أن الله جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي عند تفسيره لآية المذكورة.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي.

(٥) الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي.

(٦) مختصر تفسير ابن كثير اختصار الصابوني عند حديثه عن الآية ٥٥ من سورة آل عمران.

القيامة) فلا يصعب القول فيه، فالذين اتبعوه هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح (الإسلام) الذي عرف حقيقته كل نبي، وجاء به كل رسول، وآمن به كل من آمن حقا بدين الله، وهؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة في ميزان الله عز وجل؛ كما أنهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الإيمان، وحقيقة الأتباع.. ودين الله واحد، وقد جاء به عيسى ابن مريم كما جاء به من قبله ومن بعده كل رسول، والذين يتبعون محمدا هم في الوقت ذاته اتبعوا موكب الرسل كلهم من لدن آدمعليه السلام إلى آخر الزمان.

وهذا المفهوم الشامل هو الذي يتفق مع سياق السورة، ومع حقيقة الدين كما يركز عليها هذا السياق.

فأما نهاية المطاف للمؤمنين والكافرين، فيقررها السياق في صدد إخبار الله لعيسىعليه السلام: ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون). (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين. وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم. والله لا يحب الظالمين).. وفي هذا النص تقرير لجدية الجزاء، وللقسط الذي لا يميل شعرة، ولا تتعلق به الأماني ولا الافتراء.

سادساً: نزول عيسى ابن مريمعليه السلام إلى الأرض:

قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة النساء: ١٥٩] قال ابن كثير: قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم معنى ذلك: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ يعني قبل موت عيسى، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيمعليه السلام.

عن ابن عباس ((وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)) قال: قبل موت عيسى ابن مريمعليه السلام، وقال أبو مالك في قوله: ((إلا ليؤمنن به قبل موته)) قال: ذلك عند نزول عيسىعليه السلام،

وقبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به، وقال: الحسن: قبل موت عيسى عليه السلام، والله إنه لحي الآن عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون.

قال ابن كثير رحمه الله: ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة بذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة، فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية) يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان) بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف. فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم، ولهذا قال: ((وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ((أي قبل موت عيسى عليه السلام الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب. ((ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً)) أي بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض[٧]. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيرا من الدنيا وما فيها. ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم ((وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا))[٨].

(٧) مختصر تفسير ابن كثير اختصار الصابوني عند حديثه عن الآية ١٥٩ النساء.

(٨) صحيح البخاري، للإمام البخاري كتاب الأنبياء. باب: نزول عيسى ابن مريم عليه السلام المعنى: (إن شئتم) أن تتأكدوا من معنى وصدق ما أروي. (وإن من أهل الكتاب) وما من أحد من اليهود والنصارى. (به) بعيسى عليه السلام. (قبل موته) الموت العادي المألوف بعد نزوله عليه السلام/ والآية في [سورة النساء: ١٥٩].

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم، وإمامكم منكم؟[٩]. وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود وابن جرير وابن حبان عن أبي هريرة «أن النبي ﷺ قال: الأنبياء أخوات لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه خليفتي على أمتي، وأنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمنة[١٠] على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار[١١] مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه[١٢] وعن أَبي هُرَيْرَةَ عن النّبي ﷺ قالَ: «لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ -يَعْني عِيسَى عليه السلام -نَبِيّ، وَإِنّهُ نَازِلٌ فإذَا رَأَيْتُمُوهُ فاعْرِفُوهُ، رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ بَيْنَ مُمَصّرَتَيْنِ[١٣] كَأَنّ

(٩) المرجع السابق وأخرجه مسلم في الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم: ١٥٥.
المعنى: (وإمامكم منكم) يصلي معكم بالجماعة والإمام من هذه الأمة، تكرمة لها. أو المراد: أنه يحكم بينكم بشرعكم المستمد من كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ.

(١٠) قال العلماء: الأمنة بفتح الهمزة والميم والأمن والأمان بمعنى، ومعنى الحديث أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت. وقوله ﷺ: «وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون» أي من الفتن والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحاً وقد وقع كل ذلك.

(١١) فهي نَمِرة، وجمعُها: نِمار، كأنها أخِذت من لون النّمِر؛ لما فيها من السَّواد والبَياض.

(١٢) مسند الإمام أحمد. للإمام أحمد ابن حنبل مسند أبي هريرة رضي الله عنه وفي تهذيب سنن أبي داود، لابن القيم -كتاب الملاحم. ١٥٩٢- باب خروج الدجال.

(١٣) (الممصر من الثياب الملون بالصفرة وليست صفرته بالمشبعة).

رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيُقَاتِلُ النّاسَ عَلَى الإسْلاَمَ فَيَدُقّ الصّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَيُهْلِكُ الله في زَمَانِهِ المِلَلَ كُلّهَا إلاّ الإسْلاَمَ وَيُهْلِكَ المَسِيحَ الدّجّالَ فَيَمْكُثُ في الأرضِ أرْبَعِينَ سَنَةً ثُمّ يُتَوَفّى فَيُصَلّي عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ وأخرج أحمد عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: «إني لأرجو إن طال بي عمر أن ألقى عيسى ابن مريم، فإن عجل بي موت فمن لقيه منكم فليقرئه مني السلام»(١٤).

وللآية الكريمة مصاديق أخرى تومىء الى توريث الله -جل وعلا- الارض لعباده الصالحين، كقوله- تعالى-﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾[سورة الانبياء: ١٠٥] نجدها بين ثنايا كتب التفسير والعقائد، اضربنا عن الافاضة فيها حرصا منا على البقاء في صلب الموضوع.

(١٤) مسند الإمام أحمد. للإمام أحمد ابن حنبل مسند أبي هريرة رضي الله عنه.

المحور الثاني:

تعريف بدعوة عيسىعليه السلام:

لقد مضت فترة زمنية على بني إسرائيل بعد موسىعليه السلام قست فيها قلوبهم، وانحرفت أفكارهم، وابتعدوا عن الصراط المستقيم؛ فضلوا وأضلوا، وقد طغت عليهم المادة فأصبحوا في منآى عن منهج السماء.

ومن ثم أرسل الله تعالى إليهم عيسى ابن مريمعليه السلام ليعيدهم إلى طريق الحق، وإلى الصراط المستقيم، ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة مريم: ٣٦]، وهكذا يعلن عيسى أنه عبد الله وليس هو ابنه كما تدعي فرقة، وليس إلهاً كما تدعي فرقة، وليس ثالث ثلاثة(١٥).

لقد قامت دعوة عيسىعليه السلام على توحيد الله عزّ وجلّ، وإفراده بالعبادة، وأن كل ما سوى الله مخلوق ومربوب وعبد لله تعالى، وهذا ما نطق به عيسى وهو في المهد ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ

(١٥) الظلال ص٢٣٠٨.

ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[سورة مريم: ٣٠-٣١].

وظل عيسى عليه السلام يدعو بني إسرائيل إلى توحيد الله وعبادته وحده كما حكى القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [سورة المائدة: ٧٢].

هكذا يقرر الحقيقة التي تقوم عليها كل دعوة سماوية.

وهكذا تتفق دعوة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام مع جوهر الشرائع السماوية؛ في توحيد الله تعالى، والتوجه له وحده بالعبادة دون غيره.

بل إن الأمر ليزداد صعوبة ورهبة وهيبة، عندما يُسْتَجْوَب عيسى ابن مريم في مشهد رهيب غريب، في يوم مرهوب، في أمر الألوهية الذي نسب إليه، وهو منها براء ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾[سورة المائدة: ١١٦].

ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته مما نسب إليه، مع بيان خصائصه كعبد، وبيان خصائص ألوهية ربه ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [سورة المائدة: ١١٦].

ثم يكرر أنه بلغ الأمانة كما أمره ربه ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة المائدة: ١١٧].

أولاً: نبذة مختصرة عن الإنجيل:

لقد آتى الله تعالى عيسى ابن مريم عليه السلام الإنجيل هادياً إلى الحق، ونوراً يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات التي تعرض لبني إسرائيل آنذاك.

ومن ثم جاء الإنجيل المشتمل على الإحياء الروحي، والتهذيب الأخلاقي جاء مكملاً للتوراة المتضمنة للشرائع

التنظيمية؛ لينشئا معاً منهج حياة متكامل، ويربط الناس بربهم، غير أن العداء الذي شب بين اليهود وبين المسيح أدى إلى انفصال التوراة عن الإنجيل مما ترتب عليه عدم القدرة على قيادة الحياة الاجتماعية للأمم التي عاشت عليها، فقيادة الحياة تقتضي تصوراً اعتقادياً يفسر هذا الوجود، ونظاماً تعبدياً، وقيماً أخلاقية، وتشريعات منظمة لحياة الجماعة مستمدة من ذلك التصور الاعتقادي(١٦).

والإنجيل الذي في يد النصارى اليوم، والذي يُعرف بالعهد الجديد لا شك هو غير الذي أوحاه الله تعالى لنبيه عيسى عليه السلام عدما امتدت يد التحريف إليه بالزيادة والنقص، وهذه الأناجيل ليست إلا رواية بعض القديسين عن قصة عيسى وليست هي ما أنزله الله عز وجل عليه وسماه الإنجيل الذي أتاه(١٧). والإنجيل بذلك جاء متبعاً لما في شريعة التوراة، غير مخالف لها إلا في القليل مما كانوا يختلفون فيه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٠].

ولقد جعل الله الإنجيل موعظة للمتقين الذين تفتحت قلوبهم لما في هذه الكتب من الهدى والنور.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإنجيل شريعة خاصة لبني إسرائيل، فهو ليس رسالة عامة للبشر، شأنه في هذا شأن التوراة، وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول قبل هذه الرسالة الأخيرة، إذ أن الله تعالى جعل القرآن مهيمناً ومؤتمناً وشهيداً وحاكماً على ما قبله من الكتب؛ لما فيه من محاسن ما قبله من الكتب، ولأنه الكتاب الذي أكمل الله به الدين وأتم به الإسلام، وتعهد الله بحفظه في السطور والصدور؛ قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩] ولأنه الكتاب الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[سورة فصلت: ٤٢].

ثانياً: التخفيف ورفع الحرج:

قال تعالى عن لسان عيسى عليه السلام

(١٦) الظلال بتصرف جـ١ صـ٤٠٠.
(١٧) الظلال جـ١ صـ٩٩٨.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [سورة آل عمران: ٥٠]

لقد حرم الله تعالى على بني إسرائيل -قبل بعثة المسيح عليه السلام- أشياء، وكان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم؛ بسبب ما ارتكبوه من معاص وانحرافات قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٦٠ -١٦١] وكما جاء في سورة الأنعام؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٦].

وكان هذا التحريم بسبب طغيانهم وبغيهم واختلافهم على أنبيائهم.

يقول ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم، وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه، ولهذا كانوا أعداء الرسل، وقتلوا خلقاً من الأنبياء، وكذبوا عيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهما(١٨).

يقول الإمام السرخسي: بعض أصحابنا رحمهم الله تعالى يقولون الحرمة تثبت هنا بطريق العقوبة كما تثبت حرمة الميراث في حق القاتل عقوبة، والأصل فيه قوله تعالى ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية(١٩).

ثم شاءت إرادة الله تعالى أن يبعث فيهم ابن مريم بالتخفيف عليهم، والرحمة بهم، فيحل لهم بعض ما حرم عليهم، ومن ثم فإن طبيعة دعوة عيسى عليه السلام تقوم على التخفيف، ورفع الحرج عنهم في أمور ظلت كالطوق حول أعناقهم حيناً من الزمن، إلى أن أنعم الله عليهم ببعثة عيسى ابن مريم عليه السلام.

(١٨) بتصريف مختصر تفسير ابن كثير جـ١ صـ٤٦٤.

(١٩) المبسوط، للإمام السرخسي كتاب النكاح.

ثالثاً: تحريم الغلو في الدين:

واشتملت دعوة عيسى ابن مريم عليه السلام على تحريم الغلو[٢٠] في الدين.

فقد نهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين؛ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [سورة النساء: ١٧١].

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم أبو الشيخ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ يقول لا تبتدعوا[٢١]. يقول الإمام جلال الدين السيوطي: (لا تغلوا) لاتتجاوزوا الحد[٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة المائدة: ٧٧] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ قال: الغلوا فراق الحق، وكان مما غلوا فيه أن دعوا لله صاحبة وولدا[٢٣].

ولقد بلغت النصارى مبلغاً عظيماً في الجهل والكفر، فليس لجهلهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر حتى وصل إلى الأتباع من الرهبان، وتوارثه الخلف عن السلف.

يقول الإمام ابن كثير: ينهى تعالى أهلَ الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه اللهّ إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون اللهّ يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غالوا في أبتاعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه[٢٤].

وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام فإنما أنا عبد؛ فقولوا

(٢٠) (الغلو هو مجاوزة الحد الشرعي).

(٢١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي.

(٢٢) تفسير الجلالين. للإمام جلال الدين المحليِّ وجلال الدين السيوطي.

(٢٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام جلال الدين السيوطي.

(٢٤) مختصر تفسير ابن كثير اختصار الصابوني سورة النساء. عند الآية: من النساء ١٧١.

عبده ورسوله[٢٥].

لا تُطْرُوني كما أَطْرَت النَّصَارى عِيسى ابنَ مريم، معنى الإطْراءُ: مُجَاوَزةُ الحَدِّ في المَدْح، والكَذِبُ فيه[٢٦].

قال البخاري: (لا تطروني) من الإطراء وهو الإفراط في المديح ومجاوزة الحد فيه، وقيل: هو المديح بالباطل[٢٧].

وعن أنس بن مالك أن رجلا قال: يا محمد، يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ: يا أيها الناس، عليكم بتقواكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسول والله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل[٢٨].

ولم يقتصر الغلو عند النصارى على أمر العقيدة، بل امتد إلى الشريعة، فظهر عندهم ما يسمى بالرهبانية التي نفاها النبي ﷺ عن شريعة الإسلام.

قال مقاتل: قال عثمان بن مظعون لرسول الله ﷺ: لو أذنت لي فطلقت خولة، وترهبت، واختصيت، وحرمت اللحم، ولا أنام بليل أبدا، ولا أفطر بنهار أبدا!. فقال رسول الله ﷺ: (إن من سنتي النكاح، ولا رهبانية[٢٩] في الإسلام، إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله، وخصاء أمتي الصوم، ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، ومن سنتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني). فقال عثمان: والله لوددت يا نبي الله أي التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها؛ فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ

(٢٥) مسند الإمام أحمد للإمام أحمد ابن حنبل أول مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢٦) النهاية في غريب الحديث والأثر. للإمام ابن الأثير حرف الطاء. باب الطاء مع الراء.

(٢٧) صحيح البخاري: الجزء الثاني ٦٤- كتاب الأنبياء. ٤٩ -باب: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا ﴾ [سورة مريم: ١٦].

(٢٨) مسند الإمام أحمد للإمام أحمد ابن حنبل مسند أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه.

(٢٩) و«لا رَهْبانِيَّة في الإسْلام»: هي كالاخْتِصاءِ، واعْتِناقِ السَّلاسِلِ، ولُبْسِ المُسوحِ، وتَرْكِ اللَّحْمِ ونَحْوِها ا لقاموس المحيط للإمام الفيروزآبادي: باب الباء. فَصْلُ الرّاء.

جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[٣٠].

وعندما وجد النبي محمد ﷺ من أتباعه مثل هذا التشدد والغلو في الدين، من أولئك النفر من الصحابة الذين تذاكروا عبادتهم إلى عبادة النبي فكأنهم تقالوها، اعتبر النبي ﷺ ذلك رغوبا عن الدين؛ عَنْ أَنَس بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنّ النبيَّ ﷺ حَمِدَ اللهَّ وأَثنى عَلَيْهِ وقالَ: "لكني أَنا أُصَلِّي وَأَنَامُ وأَصُومُ وأُفْطِرُ وأَتَزوَّجُ النّساءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي فَلَيْس مني" مُتّفقٌ عَلَيْهِ)[٣١].

وللحديث سبب وهو أنه قال أنس رضي الله عنه: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته ﷺ فلما أُخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أمّا أنا فإني أصلي الليل أبداً وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم قلتم كذا وكذا؟. أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أنا أصلي وأنام وأصوم... الحديث».

قال صاحب سبل السلام: وهو دليل على أن المشروع هو الاقتصاد في العبادات دون الانهماك والإضرار بالنفس وهجر المألوفات كلها، وأن هذه الملة المحمدية مبنية شريعتها على الاقتصاد والتسهيل والتيسير وعدم التعسير: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾[٣٢].

المحور الثالث:

موقف بني إسرائيل من دعوة عيسى عليه السلام

لقد كان بنو إسرائيل يعيشون في انحراف أخلاقي بعد ما فسدت فطرتهم، وانطمست معالم الحق لديهم، وزاغت قلوبهم عن العقيدة الصحيحة إلى عقيدة واهية، مما أدّى إلي انحرافهم عن المنهج السليم؛ فقد طغت

(٣٠) الصف، الجامع لأحكام القرآن سورة الصف من ١٠: ١٢.

(٣١) صحيح البخاري للإمام البخاري كتاب النكاح. باب: الترغيب في النكاح.

(٣٢) سبل السلام، شرح بلوغ المرام، للصنعاني: كتاب النكاح.

عليهم المادة، واستهوتهم الشهوات وانطمست قلوبهم، وعميت بصائرهم، ومن ثَمّ أرسل الله إليهم عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، وجعله معجزة لهم منذ ولادته، فكلمهم وهو في المهد بلسان فصيح، وعدد نعم الله تعالى عليه، وأعلن العبودية لله تعالى منذ أول لحظة كلمهم فيها، وأن الله أتاه الحكمة والرسالة، ومنحه من بركاته، وأوصاه بالمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة، ونفى عن أمه مريم رضي الله عنها أيَّ شبهة، وأعلن أن الله سلمه في أشد الأيام التي تمر بالإنسان يوم الولادة، ويوم الموت، ويوم البعث؛ قال تعالى حكاية عن عيسى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [سورة مريم: ٣٠ -٣٣] وأمام هذه الدعوة الواضحة انقسم بنو إسرائيل إلى طائفتين؛ ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾[٣٣].

الطائفة المؤمنة ودواعي ايمانها:

منذ البداية وقد أعلن عيسى ابن مريم عليه السلام التصور الاعتقادي الذي قامت عليه دعوته، والتي تقوم عليه كل الدعوات والرسالات السماوية؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران: ٥١] ليؤكد بذلك ربوبيّة الله تعالى له ولهم على السواء، فلا عبودية إلا لله ولا مشرع إلا الله، ولا خالق إلا الله، ومن ثَمَّ فلا يكون التوجه الصحيح إلا لله تعالى.

وأمام هذه الدعوة أحس عيسى من بني إسرائيل الكفر، فقال: من أنصاري إلى الله؟.

قال صاحب الظلال: من أنصاري إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه؟. من أنصاري إلى الله لأبلغ إليه، وأؤدي عنه؟[٣٤].

والسياق القرآني يبرز هنا طائفة

(٣٣) كما أشارت السورة موضوع البحث (الصف).

(٣٤) الظلال ص٤٠١.

الحواريين ومسارعتهم إلى نصرة عيسى ابن مريم ودعوته ومؤازرته، وهذا منهج الأنبياء عندما يشعرون بالقلق تجاه رسالتهم، فإنهم ينتدبون لها من يضحي من أجلها بالمال والنفس، وذلك كما فعل النبي محمدﷺ في مواسم الحج وقبل هجرته إلى المدينة، فكان ينادي في القوم: من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعتني أن أبلغ كلام ربي؟!.

فقيض الله له الأنصار، فآووه ونصروه وواسوه ومنعوه من أن يناله أذىً حتى فتح الله عز وجلّ على أيديهم قلوب العباد والبلاد، كذلك قيض الله تعالى لعيسى ابن مريم الحواريين، فنصروه وآزروه واتبعوا النور الذي أنزل معه؛ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٢ -٥٣].

ولقد أمتن الله تعالى على عيسىعليه السلام أن جعل له أنصاراً وأتباعاً قد ألهمهم الإيمان والإتباع له؛ فامتثلوا أمر الله تعالى، ونصروا رسوله، واتبعوا النور الذي أنزل معه؛ قال تعالى ممتنا على الحواريين: ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾ [سورة المائدة: ١١١].

والوحي هنا وحي إلهام، كما هو الحال مع أم موسى، وكما هو الحال مع النحل؛ قال ابن كثير: وهذا أيضاً من الامتنان عليهعليه السلام بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً، ثم قيل: إن المراد بهذا الوحي، وحي إلهام، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ﴾ [سورة القصص: ٧]، وهو وحي إلهام بلا خلاف، وكما قال تعالى: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا ﴾ [سورة النحل: ٦٨]، وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية ﴿ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴾: أي أُلهموا ذلك فامتثلوا ما أُلهموا، وقال الحسن البصري: ألهمهم الله عزَّ وجلَّ ذلك، وقال السدي: قذف

في قلوبهم ذلك، ويحتمل أن يكون المراد: وإذا أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، واستجابوا وانقادوا وتابعوك، فقالوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[٣٥].

نبذة مختصرة عن الحواريين

من هم الحواريون؟.

قال صاحب لسان العرب: الحَوارِيُّونَ: القَصَّارُونَ لتبييضهم لأَنهم كانوا قصارين ثم غلب حتى صار كل ناصر وكل حميم حَوارِيّاً. وقال بعضهم: الحَوارِيُّونَ صَفْوَةُ الأَنبياء الذين قد خَلَصُوا لَهُمْ؛ وقال الزجاج: الحواريون خُلْصَانُ الأَنبياءعليهم السلام، وصفوتهم. قال: والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: الزُّبَيْرُ ابن عمتي وحَوارِيَّ من أُمَّتِي؛ أَي خاصتي من أَصحابي وناصري. قال: وصفوة اصحاب النبي ﷺ، حواريون، وتأْويل الحواريين في اللغة الذين أُخْلِصُوا ونُقُّوا من كل عيب؛ وكذلك الحُوَّارَى من الدقيق سمي به لأَنه يُنَقَّى من لُباب البُرِّ؛ قال: وتأْويله في الناس الذي قد روجع في اختِياره مرة بعد مرة فوجد نَقِيّاً من العيوب[٣٦] وقال ابن عون: أصل الحَوَر في اللغة البياض[٣٧].

والحواريون هم أتباع عيسى ابن مريمعليه السلام، وقد ألهمهم الله تعالى الإيمان به وبرسوله عيسى، وأشهدوا عيسى على إسلامهم بعد أن انتدبهم، وكانوا اثني عشر رجلاً[٣٨].

وقد اختلف العلماء في سبب تسميتهم :

قيل: إن الحواريين سموا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا صيادين[٣٩]. قاله ابن عباسرضي الله عنه[٤٠] وقيل: سموا بذلك لأنهم خاصة الأنبياء؛ عن الضحاك في قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ قال: أصفياء الأنبياء.

(٣٥) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني جـ١ صـ٥٦٢.

(٣٦) لسان العرب للعلامة ابن منظور مادة (حور).

(٣٧) عن القرطبي ج٤ ص٩٧.

(٣٨) القرطبي جـ٤ صـ٩٧.

(٣٩) وقيل الحواري هو الصياد، وكان بطرس وأندراوس ويعقوب بن زَبَدَى من صيادي الأسماك.

(٤٠) عن القرطبي ج٤ ص٩٧.

وقال ابن كثير: والصحيح أن الحواري: الناصر كما ثبت في الصحيحين عن سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِّ. قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: نَدَبَ رَسُولُ اللهّ ﷺ النّاسَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ. فَانْتَدَبَ الزّبَيْرُ ثَلاَثاً. ثُمّ نَدَبَهُمْ. فَانْتَدَبَ الزّبَيْرُ. ثُمّ نَدَبَهُمْ. فَانْتَدَبَ الزّبَيْرُ. فَقَالَ النّبِيّ ﷺ: "لِكُلّ نَبِيّ حَوَارِيّ وَحَوَارِيّ الزّبَيْرُ". قال سفيان: الحواري الناصر[٤١]. وقال البخاري: (حواري) خاصة من أصحابه، وخالصا من أنصاره[٤٢].

فكان الحواريون هم أصحاب عيسى عليه السلام الذين حملوا دعوته، ونهضوا بها معه، يحامون عنها، ويبلغونها إلى من يليهم.

وقد اعتمد منهج الأنبياء في الدعوة على تربية جيل يحمل الدعوة، فكان لعيسى عليه السلام الحواريون الذين حملوا لواء الأمانة: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٣].

وحواريو المسيح عيسى أو تلاميذه كانوا في المشهور عنهم: اثني عشر؛ وهم: سمعان المدعو بطرس، وأندراوس أخوه، ويعقوب بن زَبَدَى، ويوحنا أخوه، وفيلبس، وبرتلوماوس، وتوما، ومتى العشار، ويعقوب بن حَلفَى، وتَدَّاوس، وسمعان القانوي، ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه[٤٣]. فهؤلاء هم الحواريون بالمصطلح الإسلامي أو التلاميذ بالمصطلح النصراني[٤٤].

وقيل الحواري هو الصياد، وكان بطرس وأندراوس ويعقوب بن زَبَدَى من صيادي الأسماك[٤٥].

(٤١) البخاري: كتاب الجهاد والسير. باب: السير وحده.

(٤٢) قاله البخاري باب: فضل الطليعة كتاب الجهاد والسير.

(٤٣) إنجيل متى/ الفصل العاشر ٢/ ٥.

(٤٤) لا يرد لفظ الحواريين في الإنجيل، وإنما الذي ورد عندهم لفظ (التلاميذ) وهم المتلقون عن معلم، وأما الحواريون فهم أرقى من التلاميذ؛ لأنهم يناقشون ويحاورون ويتحاورون بغية الوصول إلى الحق.

(٤٥) موسوعة القرآن العظيم جـ ١ صـ ٥١٨ د/ عبدالمنعم الحفني/ مكتبة مدبولي/ ط أولى ٢٠٠٤م.

وكان لخاتم الأنبياءﷺ أصحاب حواريون، حملوا الأمانة وبلغوها كما هي، وكانﷺ يقول: فليبلِّغ الشاهد الغائب، فإنه ربَّ مبلِّغ يبلِّغه من هو أوعى له(٤٦) وقالﷺ: (نضّر اللهُ عَبْدًا سمع مقَالَتي فوعاها، ثُمَّ بلغها عَنْي. فربّ حامل فقه غَيْر فقيه. وربّ حامل فقه إِلَى من هُوَ أفقه منه)(٤٧).

وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة يوسف: ١٠٨].

الطائفة الكافرة:

وأما الطائفة الأخرى التي كفرت فأرجح الآراء أنها اليهود؛ لما رأوا من التفاف الناس حول عيسى ابن مريم وأمه، يلتمسون منهما البركة، ويضعونها الموضع اللائق بهما. فثارت في نفوسهم عوامل الحقد والضغينة تجاه عيسى وأمه؛ فمكروا بهما وأخذوا يدبرون لهم المكائد والمصائب.

قال الإمام ابن كثير في تفسيره: وكان من خبر اليهود عليهم لعائن اللهّ وسخطه وغضبه وعقابه، أنه لما بعث اللهّ عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه اللهّ تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يبرىء بها الأكمه(٤٨) والأبرص(٤٩) ويحيي الموتى بإذن الله ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن اللهّ عزَّ وجلَّ إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه اللهّ بها أجراها على يديه ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسعوا في اذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي اللهّ عيسىعليه السلام لا يساكنهم في بلده، بل يكثر السياحة هو وأمهعليهما السلام(٥٠).

(٤٦) البخاري باب: قول النبيﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض).

(٤٧) سنن ابن ماجة للإمام ابن ماجة عن عَبْد الرَّحْمَن، عَن أَبِي بَكْرة. قَالَ: خطب رَسُول اللهﷺ يَوْم النحر، فقَالَ وذكر الحديث في [افتتاح الكتاب في: الإيمان، وفضائل الصحابة، والعلم]. بَاب من بلغ علما.

(٤٨) الأَكْمَهُ الذي يولد أعمى.

(٤٩) لبَرَصُ، محركةً: بياضٌ يَظْهَرُ في ظاهِرِ البَدَنِ لِفَسَادِ مزاج.

(٥٠) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني جـ١ صـ٤٥٥.

ومن ذلك الأذى ما تحملته السيدة مريم عليها السلام وابنها عليه السلام من العنت والمشقة والأحقاد والسفاهة ما جعلها تغادر المكان؛ قال تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٥٦] قال السدي: والظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، فكانوا ينادون عيسى عليه السلام بـ (يا ابن الزانية)[٥١] قال الإمام الطبري: يعني: بفريتهم عليها، ورميهم إياها بالزنا، وهو البهتان العظيم؛ لأنهم رموها بذلك وهي مما رموها به بغير ثبت ولا برهان بريئة، فبهتوها بالباطل من القول[٥٢].

وقد هموا بالتخلص منه وذلك بالقتل، بل وكانوا يتفاخرون بذلك، فيقولون: قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله (على سبيل السخرية يقولون رسول الله) يقول ابن كثير: وقوله: {إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله} أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه وهذا منهم من باب (التهكم والاستهزاء) كقول المشركين: {يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون}[٥٣].

غير أن القرآن لم يترك هذا الأمر دون ردٍ واضح يبطل فيه زعمهم، فقال سبحانه: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء: ١٥٧-١٥٨].

وحول كيفية رفع المسيح عليه السلام يقول الإمام ابن كثير: كان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، سعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلده، بل يكثر السياحة هو وأمه عليها السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى

(٥١) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني جـ١ صـ٤٥٥.

(٥٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن. للإمام الطبري.

(٥٣) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني جـ١ صـ٤٥٥.

سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته اليونان، وأنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ويكف أذاه عن الناس، فلما وصل الكتاب امتثل والي بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر وقيل سبعة عشر نفراً -وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت- فحصروه هنالك، فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيّكم يُلقى عليه شبهي، وهو رفيقي في الجنة؟. فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو!. وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفتحت روزنة[٥٤] من سقف البيت وأخذت عيسى عليه السلام سِنَةٌ من النوم فرفع إلى السماء وهو كذلك كما قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾، فلما رفع خرج أولئك النفر، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه في الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه، وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك، لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا -كما ظن اليهود -أن المصلوب هو المسيح بن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال إنه خاطبها والله أعلم، وهذا كله من امتحان الله عباده لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح

(٥٤) والرَّوْزَنة: الكُوَّة، وفي المحكم: الخرق في أَعلى السقْف. التهذيب: يقال للكُوَّة النافذة الرَّوْزَن، قال: وأَحسبه معرَّباً، وهي الرَّوَازِن تكلمت بها العرب. ع، لسان العرب لابن منظور باب/ رزن.

اللهّ الأمر، وجلاه وبينه، وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أي رأوا شبهه فظنوه إياه ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ يعني ذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلّمه إليهم من جهال النصارى كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال[٥٥].

زاد القرطبي: فتفرقوا ثلاث فرق: قالت فرقة: كان فينا الله ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمداﷺ فقتلوا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [سورة الصف: ١٤] أي آمن آباؤهم في زمن عيسى "على عدوهم" بإظهار دينهم على دين الكفار "فأصبحوا ظاهرين"[٥٦].

تأييد الله تعالى للطائفة المؤمنة:

قال تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [سورة الصف: ١٤].

جرت سنة الله عزّ وجلّ أن ينصر عبادة المؤمنين الموحدين الذين استقاموا على منهج الدين، وسنن المرسلين، أن ينصرهم على من عاداهم، وذلك ما حدث لأتباع عيسىعليه السلام فقد أيدهم الله تعالى فأصبحوا ظاهرين على مخالفيهم من اليهود، ومن غالى في عقيدة المسيحعليه السلام، فقال بغير ما جاء به من أنه عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل، وقد بشره الله بذلك حال حياته، وقبل رفعه، فقال سبحانه لعيسى ﴿ ... إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

(٥٥) بتصرف: راجع مختصر تفسير القرآن العظيم جـ١ صـ٤٥٥.

(٥٦) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي: الجزء ٤. سورة آل عمران. الآية: ٥٥.

وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٥] وهذه سنة الله تعالى مع أوليائه وأصفيائه؛ فقد نصر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ وأصحابه وهم قلة على من عاداهم من القرشيين يوم بدر فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[سورة آل عمران: ١٢٣].

وهذا نوح عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ما آمن معه إلا قليل، فلما رأى إصرارهم على الكفر، وجحودهم الحق دعا ربه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [سورة القمر: ١٠].

فجاءت استجابة السماء سريعة ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [سورة القمر: ١١ -١٥].

وهكذا مع كل الأنبياء والمرسلين والصالحين من عباده المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج: ٤١] وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [سورة النور: ٥٥].

وفي هذا استنهاض للهمم، وتثبيت لأهل الحق الأمناء على منهج الله في الأرض، الحاملين للرسالة الأخيرة، الداعين للخير، الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الحافظين لحدود الله، الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله، وكفى بالله حسيبا.